

الاندلس في المغرب

عيسى الناصري

في عام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد الله كُتُون ، وكان بيننا حديث على الاندلس ، وعلى روائع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن ان هذه الفنون قد جهدت على ما خلفه عرب الاندلس في اسبانيا . غير ان الاستاذ كُتُون أكد لسي ان هذه الفنون لم تَجُود ، بل هي تعيش الآن وتتطور في المغرب بازهى واحديث مما هي في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحسبتُ انسه من قبيل المغامرة الوهمية .

ثم اتيج لي ان ازور المغرب عام ١٩٧٤ بحثاً عن اثر الفنون الاندلسية هناك : من طراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومن فناء وموسيقى ورقص . وقد قضيتُ في تلك الزيارة واحداً وعشرين يوماً ، وتجوّلتُ في المدن الرئيسية : من طنجة غرباً ، الى وجدة شرقاً ، والى مراكش جنوباً ، وبينهما زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفاس ، وتطوان . وفي كل مدينة قضيتُ يومين او اكثر ، ازور المساجد ، والمساجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمدارس القديمة ، والاسوار والقصبات . وذهلتُ فعلاً وانا اعيش جُوء الاندلس من جديد ، ولكن بشكل احدث واكثر تطوراً واشد روعة .

كنت قبل زيارة المغرب أحسبُ ان فنون الزخرفة الاندلسية قد دخلت الى الاندلس من المغرب ، مع الفتح الاسلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تيقنتُ بعد زيارة المغرب من ان هذه الفنون المدهشة انما دخلت الى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوها معهم من دمشق ، بعد ان كانت دمشق قد اخفتها عن القاشاني الفارسي ، ومن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَعِ دِمَشْقَى خَاص . ثم تَطَوَّرَتْ في إسبانيا مع الأَيام ، ولم تدخل الى المغرب الا في عهد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، بعد ان ضَمَّ يوسف بن تاشفين الاندلس الى المغرب ، فاصبح البُلْدَانُ بِلْدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنونَ الاندلسيَّةَ منذ ذلك الحين . وحين خرج العرب من الاندلس في القرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلْدَانِ المغرب ، حملوا معهم فنونهم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومنذ ذاك راحت تتطوَّرُ مع الزمن الى يومنا هذا .

والواقع ان الذي يريد دراسة الفنون الاندلسية كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُدَّ له من زيارة المغرب ، والتجول في مختلف مُدُنِهِ ؛ فالاندلس تعيش هناك باجمل ما في فنونها الرفيعة الخالدة .

وفي ما يلي أُدَوِّنُ ما شاهدتهُ وأعجبتُ به في عدد من اهمّ المدن المغربية مع شيء مما لا يَدَّ منه من الربط التاريخي :

- ١ - سَبْتَةُ وَطَنْجَة

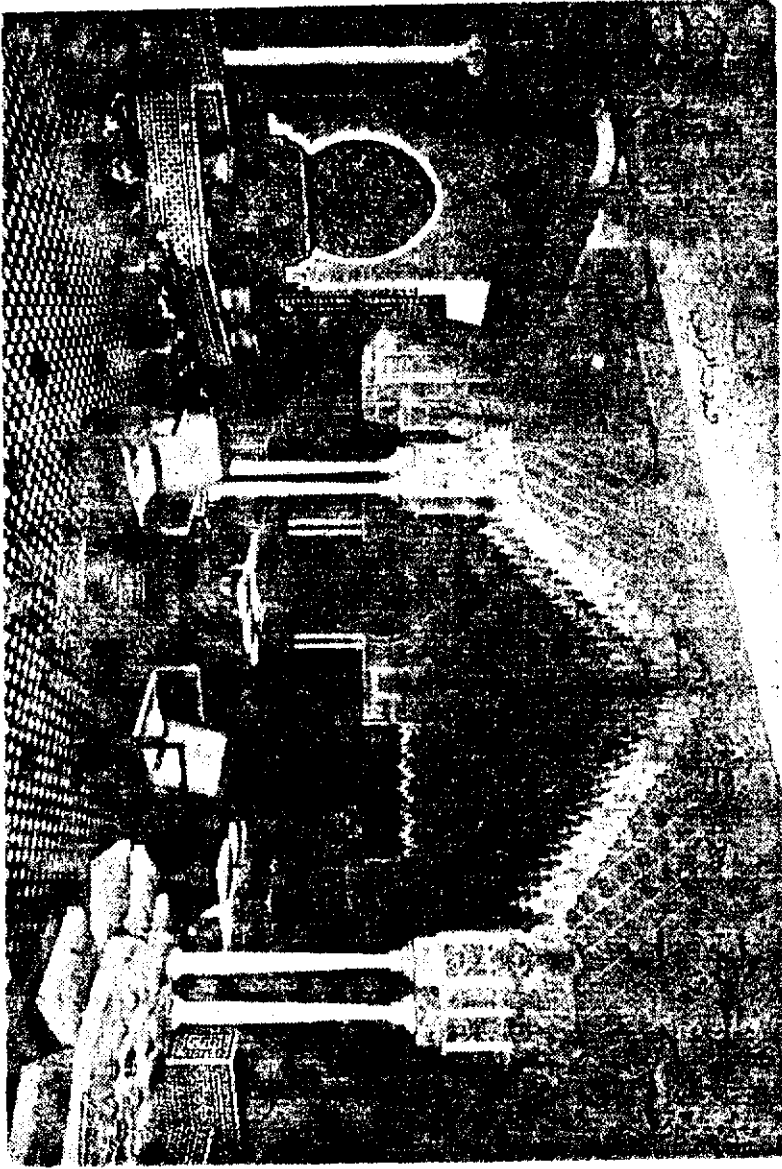
في الزاوية الشمالية الغربية من المملكة المغربية ومن القارة
الافريقية ، وعلى شاطئ البحر المحيط والبحر المتوسط معا ، تقوم
مدينة طنجة ، وعلى مسافة قريبة منها الى الشرق تقع مدينة سَبْتَةُ
ايضا . وبين المدينتين العريقتين ينتصب شامخاً جبل موسى - سَبْتَةُ
الى موسى بن نصر - ويقابله على العُدوة الاسبانية ، شامخاً
متفطراً ، جبل طارق . وكان هذان الجبلان والجبال العالية المتقابلة
بينهما ، وَمِنْ حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقل) . وهي تتقابل
متَرَدَّةً على جانبي ما كان يُدعى مِنْ قَبْلُ (بحر الزقاق) او (بحر الميزان) ،
وَيُدعى اليوم (مضيق جبل طارق) . وانما كانت تسميته بالزقاق او
المجاز لضيقه ، فهو ضَيِّقٌ صغير ، لا تزيد ابعده مسافة فيه بين
العدوتين عن ثلاثة عشر كيلو مترا .

اما تسمية الجبال المتقابلة الجبارة باسم (اعمدة هرقل) فلها
اسطورة قديمة، تقول إِنَّ الارض كانت مُتَّصِلَةً بين المغرب واسبانيا ،
وكانت تُفصل بين مياه الاطلنطي والمتوسط . ثم تَزَوَّج هرقل ، وجاء
بزوجه الى طنجة . ولئلا يتمكن احدٌ من الوصول اليها وسلبها اياها ،
شَقَّ الارض بين القارتين ، وانشأ بينهما الزقاق المائي ، واسمُ المساءِ
بالماء ، واقام الجبال الشاهقة حارسة على طرفي المساءِ ، فُدْعِيَتْ
هذه الجبال المارِدة باسم (اعمدة هرقل) .

وفي طنجة مغارة هائلة على البحر تُدعى (مغارة هرقل) مَكْرُوهة
لَمَواج البحر القويّة التي ظَلَّتْ تضرب اطراف الجبال قرونا لا تحسراها .
ويقف المرء على شاطئ طنجة وسبتة ، فسيرى البواخر والقوارب ،
تَمُحَرُّ البحر غاديةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُسَدَّن (قادس) ومطرف ،
والجزيرة الخضراء ، وجبل طارق ، ومالقة) على العُدوة الاسبانية .
وحين يقف على سفح جبل موسى ، بين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحس الزقاق ، يُروعه شموح صخرة جبل طارق ، كأنها
 أوشق عنها البحر ، فتمردت شامخة فوق تيجان الغيوم المتصاعدة
 من البحر .

داخل فندق الريف في طنجة



من هذه البقعة انطلقت جيوش الفتح العربي الاسلامي لفتح
 بلاد اسبانيا ، مبتدئة عام ٩١ هـ . ٧٠٩ م . وكانت هذه البقعة قبل
 الفتح الاسلامي للمغرب وخلال مُدَّةٍ من بدايته ، ذات صلة متينة
 باسبانيا ؛ فقد كانت سبقة في عهد عقبة بن نافع ، ثم موسى بن

نصر من بعده ، في ايدي الاسبان ، وكان يحكمها يولييان ، السدي
تعاون مع العرب على غزو اسبانيا لانقاذها من حكم عدوّه لفرقي ،
ومهدّ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبّطُ اليوم يحكمها الاسبان ، وكانوا
الى عام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربيّ كلّهُ ، وجزءاً من الشاطئ
الغربي ، في حين كان الفرنسيون يحكمون بقية المغرب .

وظلّت سبتة وطنجة مُعبراً طبيعياً بين المغرب والاندلس ، مثما
هما اليوم المُعبرُ بين البلدين : منها عبّرت سرايا طريف بن مالك ،
للاستكشاف أولا ، عام ٩١ هـ . وعادت بالغنائم الوفيرة ، وببشائر
سهولة الفتح . ثم عبّرت بعدها جيوش طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ .
وتوغّلت في الجنوب الاسباني والغرب ؛ ثم تلّتها جيوش موسى بن
نصر سنة ٩٣ هـ . لاستكمال فتح اسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة ايضاً كان الأمويّون يدخلون احيانا من الاندلس
الى المغرب ، لمنع المغاربة من التدخّل في شؤون الأندلس . ثمّ من
هذه البقعة عينها دخلت فيما بعد جيوش المرابطين ، بقيادة يوسف
بن تاشفين ، مرّتين : مرّة لانقاذ امارات الطوائف من غارات الجيوش
الاسبانية ، والمرّة الثانية لاحتلال الاندلس برمتها وضّمتها الى المغرب . ومن
هناك عادت الصلة التامة بين المغرب والاندلس ، واصبحت هذه
جزءاً من المغرب ، ودخلت فنون الاندلس الى المغرب ، واتّسّلت
الحضارة بين البلدين فصارت واحدة . واستفاد المغرب من ذلك
فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمة عليه من حيث العلم والثقافة ،
وكان هو متقدّماً عليها في القوة والسلاح ، « فكان هو يبذل للأندلس
حمايته — كما يقول الاستاذ عبد الله كنون في الجزء الاول من كتابه
(النبوغ المغربي) — والاندلس تبذل له ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين
استولى يوسف بن تاشفين على الاندلس ، حمل ملك إشبيلية ،
المعتمد بن عباد ، اسيراً مكبلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ،
ثم الى أغمات — في الجنوب المغربي ، قرب مراكش — حيث سلت
سجيناً ذليلاً .

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول — الطبعة الثانية .

لقد تأثرت طنجة ، مثلما تأثر المغرب كله ، بحضارة الاندلس ، وظلَّ هذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العناية البالغة بالهندسة المعمارية ، والزخارف والنقوش الاندلسية ، والمقربصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشب — والمقربصات تعني (النقوش المجسمة النافرة) وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية (CORPUS) التي تعني (الجسم) ؛ ويُخطئ من يدعوها (المقرنسات) او (المقرنصات) ، فهي كلها مُجسّمات نافرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسية على قطع الزليج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلة الزاهية ، ولا سيما اللون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعة الصناعة ، كاوراق الشجر حيناً ، او باشكل مربعة او مثلثة احيانا اخرى . وهي تُلصقُ الصاقاً على الجدران ، وتُصنّع منها سُورٌ واشكالٌ فنيّة غاية في الجمال والرهافة والدقّة . وقد تغطّي بها الجدران بأكملها ، او قد يُغطّى جزء من الجدران الى علوّ معين .

وحين تجتمع هذه الزخارف الخزفيّة الى المقربصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، او في الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فنانةً للأنظر وبهجةً للقلب .

هذا الطراز من الزخارف الزليجية والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبان الى اليوم يحافظون عليه في متاحفهم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليه في المغرب اشدّ واعظم ، واكثر اتساعاً : فقصور المغرب كلها ، ومساجده ، وفنادقه ، والكثير من بيوته ، هي قطع روائع من الفن الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبت لزيارة الصديق عبد الله كنون في منزله في القصبة — وهي مدينة طنجة التاريخية القديمة — فراعني ما شاهدت في المنزل من جمال النقوش والزخارف الاندلسية : من مدخل الدار ، الى بيوها السفلى ، الى السلم الصاعدة الى الطابق الثاني ، الى ما رايته من غرف المنزل ، وطراز اثائها . كلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفراش ، والستائر ، والمقاعد الممتدة على الأرض ،
أو المرتفعة على مساطب مفروشة .

ومثل منزل عبد الله كنون ، بل أكثر زخرفة ، كان كذلك الفندق
المعروف باسم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آياتٌ بامتياز من هذه
النقوش والزخارف الاندلسية .

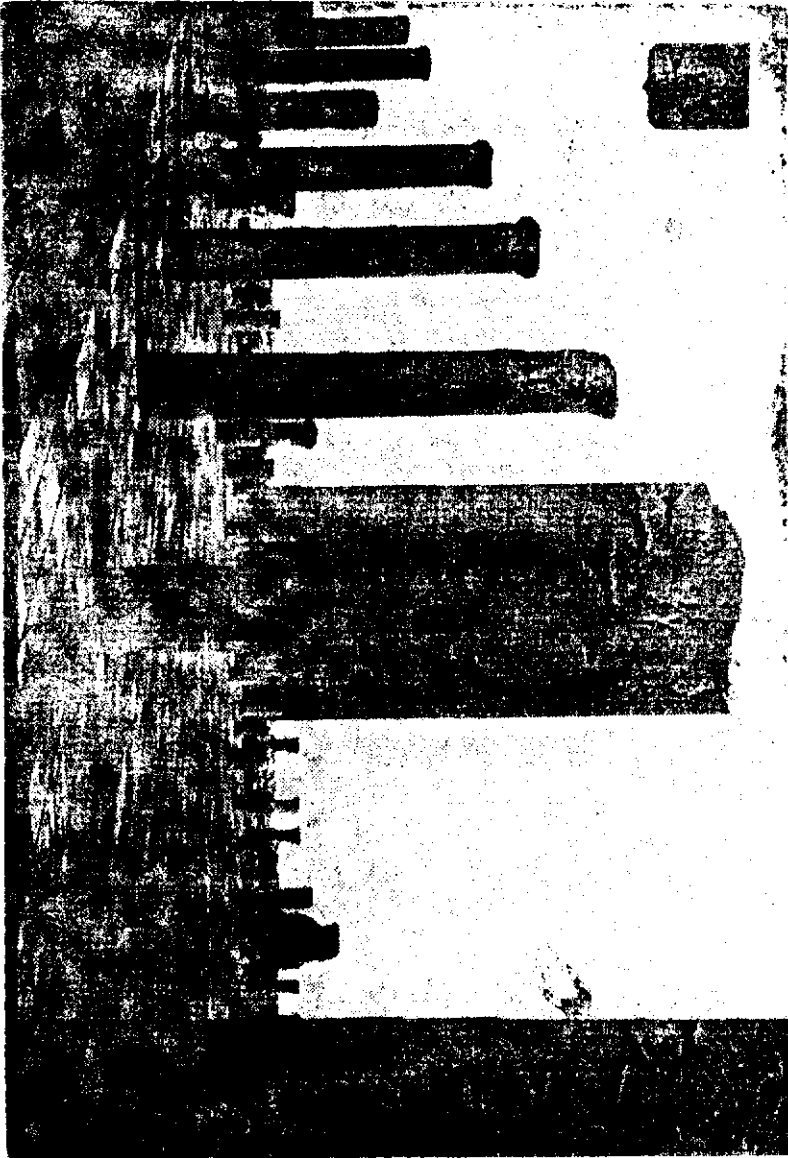
وتنتقل من هناك لتتجول في (القسبة) المطلّة على البحر ،
والمحاطة بالأسوار العالية ، فتتخيّل أنك في إحدى قسبات الاندلس ،
والقسبة كانت من قبل مقرّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولة ، وثكنات
الجيش . وفي طنجة ما تزال القسبة يبدو عليها القدم ، في البيوت ،
والشوارع ، إلا من بعض الأبنية الحديثة التي تكاد لا تبدو فيها .
واسوارها شبيهة بأسوار كثيرة ما تزال قائمة في العديد من المدن
الاندلسية . الطراز واحد ، والتنوّات المدبّبة في أعلى الأسوار والأبراج
واحدة . ولا عجب في ذلك ، فقد تعاقب على حكم الاندلس من
المغاربة — من القرن الحادي عشر الميلادي إلى أواخر القرن الخامس
عشر — المرابطون ، والموحّدون ، والمُرِينِيُّون ، الذين في أواخر عهدهم
خرج العرب نهائياً من الاندلس . وكلّ هؤلاء تركوا آثاراً متشابهة في
الاندلس والمغرب معاً ، وكلّهم شيدوا القلاع والحصون والقسبات
والتصور ، وبنوا المساجد والأسوار ، وأسّسوا المدارس في عدوّتي
بحر الزقاق . وكثير من هذه الآثار ما يزال قائماً إلى اليوم على
الأرض المغربية والأرض الإسبانية .

وأما الغناء الاندلسي والموسيقى فما يزالان يعيشان كذلك في
طنجة ، وفي المغرب برمتيه . والمغاربة يدعونه باسمه الحقيقي : (الغناء
الاندلسي) ، في حين يدعوه التونسيون والليبيون باسم آخر ، هو
(المالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغناء الاندلسي باستمرار في
كلّ مكان من الأرض المغربية ، باعتباره فنّاً لهم فيه حصّة ، ولهم في
بقائه نصيب ؛ فهو لذلك بعض من التراث الشعبي المغربي .

الرباط

من مانجة ننحدر - مع الخريطة الجغرافية ، لا مع التاريخ -
جنوباً ، لنصل الى مدينة الرباط ، عاصمة المملكة المغربية اليوم ،
وجارة مدينة (سلا) على شاطئ الاطلنطي ، لا يفصل بينهما غير نهر

منطقة حسن في الرباط



ضحل المياه ، قليل العرض ، هو نهر (بورقراق) . وفي (سلا)
تُؤمّن الملك عبد المؤمن ، اول ملوك الموحّدين .

وقبل أن أبدا الحديث على الرباط ، أرى أن أفكر أن زرتها
(سلا) مدينة أندلسية، بمعنى أن سُكَّانها من أصل أندلسي ، فخرجوا
من الأندلس فعمروها ، وأقاموا يمارسون فيها أساليب حياتهم ،
وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهم الأندلسية ، مثلما فعل إخوانهم
خرجوا من الأندلس ، وأنشأوا مدينة تطوان ، وبعض المدن المغربية
الأخرى ؛ وكانت سلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المدن
المغربية القديمة .

ولكنني لن أتكف طويلا عند مدينة سلا ، وقد زرتها وتجوَّلتُ
فيها ، فلم أجِد فيها من مظاهر الفنون الأندلسية إلا القليل الذي
لا يستحق الوقوف عنده، بالنسبة إلى ما شاهدته في المدن الأخرى الكبيرة .

وأما مدينة الرباط ، أو « رباط الفتح » ، كما كان اسمها ،
فتمتخر بالكثير جدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكل يسترعي
النظر ، ويستوقف الزائر للتأمل والاعجاب .

هذه المدينة بناها سلطان الموحِّدين الأشهر يعقوب المنصور ،
سنة ١١٩٨ م . ٥٩٣ هـ . وأنشأ فيها مسجد حُسن وصومعة — مئذنته —
أخت مئذنة (الكتَّبة) في مراكش ، ومئذنة (الخير السدا) في اشبيلية ،
بالأندلس ، وكلُّها من أعماله الخالدة . وأما مسجد حُسن فقد دُرس ،
ولم يبق منه اليوم غير أنصافِ أعمدة مزروعة في الأرض ، يقوم بينها
جزء من المئذنة يستدعي الأسفاق حين يتذكَّر المسرُّ أن شقيقته في
مراكش واشبيلية لا تزالان قائمتين تحدَّيان الزمان . ويُقال إن المئذنة
لم تكمل ، مثلما كملت شقيقتها .

وفي الطرف الغربي من المدينة تقوم (قصبة الأوداية) ؛ وهي
أخت لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقية إلى اليوم في الأندلس ،
تشابهها في البناء الداخلي ، وفي الأسوار ، وفي كلِّ شيء . وكان
قد أنشأها ملك الموحِّدين الأوَّل عبد المؤمن بن علي سنة ١١٥٠ م .
وهي أصل مدينة الرباط .

وفي جبة أخرى من المدينة تقوم بقايا مدينة رومانية تُدعى (شبيلا) ، وقد اتخذها ملوك المرينيين مقبرة لهم ، واحاطوها بأسوار عالية ، واقاموا فيها مسجدا ومثذنة . وكلها ما تزال قائمة هناك الى اليوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الا في عهد الاسرة العلوية التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيد ، في القرن السابع عشر الميلادي — وكانت في اول عهدهم مقراً مؤقتاً للوكهم ، ثم تحولت الى عاصمة رسمية لهم في زمن الملك يوسف ، والد الملك محمد الخامس ، وجدّ الملك الحسن الثاني . وكانت عاصمتهم من قبل هي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مدن أخرى عواصم للمغرب ، فالعاصمة هي (إيللي) مرة ، وحيناً مراكش ، وحيناً آخر مكناس ، أو فاس . وأحياناً كانت المدينة الواحدة تتحول مراراً الى عاصمة ، مثل مدينة فاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَنَاقَبَتْ على المغرب كلّ حكومات متعددة : من عهد إدريس الأول ، حفيد الرسول ، الذي لجأ الى المغرب في القرن الثامن الميلادي ، هرباً من بطش هرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وأُسِّسَ هناك الدولة الإدريسية ، اول ملكة مغربية اسلامية ، وقد استمر حكمها نحو قرنين من الزمن . ثم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحدين ، فالمرينيين ، فالوُطَّاسِيين ، فالسعديين ، وأخيراً الدولة العلوية الحاكمة الى اليوم . وعُرفَ المغربُ الحكمَ الاجنبي فترة من تاريخه الحديث ، وكان حُكماً استعماريّاً مزدوجاً : فهو اسباني في الشمال والغرب ، وفرنسي في الوسط كلّ ، الى ان جلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملك المغرب اليوم . ولم يبقَ من المغرب في أيدي الاسبان غير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعد ان خرج الاسبان اخيراً من الصحراء المغربية ، على الساحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، ومن بعدهم الموحدون ، ثم المرينيون قد حكموا
الاندلس ، وجعلوا منها جزءاً من دولة المغرب . وفي أواخر العهد
المريني وبداية العهد الوطاسي خَرَجَ العرب من الاندلس ، فكان من
الطَّبْعِيَّ جَدًّا أن يلجأوا الى الشمال الافريقي ، ويُنشئوا فيه مُدُنًا
ومرى ، كان منها في الشمال تلمسان وتطوان ، وفي الوسط مرسلا
وتلمسان اليوم من الجزائر .

هذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغرب والاندلس ،
ومن حيث الآثار العديدة الباقية اليوم في مدينة الرباط ، وما له أهمية
كثيرة في الاندلس .

أمَّا الطراز الاندلسي في البناء والزخرفة ، فإن في الرباط منه
الكثير مما يدهش النظر ويبهج النفس . وانت حين تبتل الى منطقة
حسان ، تجد الى جانبها ، وعند طُرف الأعمدة الباقية من جامع
حسان ، بناءً من أفخم الابنية وابهاها ، هو ضريح الملك محمد
الخامس ، والى جانبه مسجد محمد الخامس كذلك . والبنان آيتان
من آيات الصناعة الاندلسية الحية المتطورة في المغرب ، وأدعانا
الى الدهشة والانبهار بجمال صناعته الاندلسية هو الضريح ذو
الطابقتين ، بِقُبَّتِهِ العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفْنُنُ فيها السُّنَاعُ حتى ان
يَبْقَى بعد مُنْتَهَمِ مَنْ فِي زخارف الزليج والمقربصات الرائسة . وانت تف
تحت قُبَّتِهِ ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لم تُعْرِفْ عسور
الاندلس لها مثيلاً ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر حُفَّة المريف ،
وجامع قرطبة ، وقصر اشبيلية — وكلها من عجائب الدنيا في جمال
الصناعة الزخرفية والهندسية الاندلسية .

والجديد في ضريح محمد الخامس هو إدخال الذهب في الطراز
الاندلسي بأشكال لم تعرفها زخارف الاندلس من قبل ، وبكثرة تُغلب
النظر ؛ وكذلك التفتن في الأشكال الزخرفية الأخرى غير المألوفة
كذلك . وتُحِسُّ وانت في داخل الضريح ، ثَمَّ في المسجد من بعده ،
بأنك لو تَطِيلُ البقاء ، مستمتعاً بروعة الصناعة وجمال الفن .

وتستفيد في خيالك كسلّ قصور الاندلس ومساجدها وماآفنها ، فتحسّ
بعضمة الأندلسيين الذين خلّقوا هذه الفنون المدهشة : من دقّة القطع
الزليّجية الصغيرة ، ورهافة الفن في ترصيعها ، وجمال النقوش
المصنوعة منها ، ومن رهافة المقرّصات الجبسية والخشبية التي
حَاقَتْهَا عبقرية الفنان الأندلسي . ثم يأخذك العجب من بقاء هذه
الصناعة العجيبة مزدهرة ، ومن تطوُّرها وتحديثها في مدن المغرب
كلّها إلى اليوم ، وحفاظ المغرب على أن تظلّ "الاندلسُ حيّة" فيه ،
لا يمحو جمالها الزمان ، بهندستها المعمارية ، وزخارفها ونقوشها
ومقرّصاتنا ، وكذلك بموسيقاها ، وغنائها ورقصها .

وتَخْرُج من الضريح والجامع لتجول في انحاء مدينة الرباط ،
فتدهشك القصور الملكية ، بزليجها الأخضر الجميل في السطوح ، وفي
الجدران الخارجية ، وفي ظلال الحدائق الفسيحة : قصر المشوّر ،
وقصر السلام ، والقصر القديم الذي بناه محمد بن عبد الله العلوي .
وهذه القصور الملكية تحفّ روائع من الصناعة الأندلسية الطراز ،
تُفَنّن فيها الصنّاع المغاربة فأبدعوا غاية الإبداع .

نمّ تمضي إلى جامع السُنّة ، وجامع مولاي يوسف ، وهما
مقتاربان في المكان ، فتقف متأملاً جمال الزليج الأخضر الذي يغطّي
سطوحهما . وتمضي إلى الداخل ، فتدهشك البساطة الأنيقة في
رهافة الصناعة الأندلسية — وللبساطة جمالها أيضا متى كانت من
صنّاع يدٍ فنانة بارعة — .

ولا يقتصر الطراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بل تجده
كذلك في بعض الفنادق ، وأخصّ بالذكر (فندق حسان) ، في وسط
الديّة ، وهو تحفة فنية رائعة من الداخل ، بجمال الصناعة الخزفية
الأندلسية ، التي تستريح إليها النفس ، ويستريح النظر .

مراكش

ونمضي مع خريطة المغرب انحدارا الى الجنوب ، عكس مسار
الى مراكش ، مدينة النخيل ، او المدينة الحمراء ، كما تدعى احيانا .



منمنمة الكتبة في مراكش

وهي تدعى كذلك لأن لون بيوتها الخارجي احمر ، عكس مبدن المغرب
الأخرى وقراه ، وكلها تقريباً مطلية من الخارج باللون الأبيض .

ومثلها كذلك الجزائر وتونس وليبيا — وتكثر في المدينة ومن حولها
أشجار النخيل الجميلة ، وبيوتها صغيرة وقليلة الطوابق .

هذه المدينة بناها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين سنة ١٠٥٤ هـ .
١٠٦٢ م . واتخذها عاصمة لدولته بدلاً من العاصمة فاس . ومن بعد
ظلت مراكش عاصمة للموحدين ، ثم كانت عاصمة كذلك للسعديين في
القرن السادس عشر للميلاد ، العاشر للهجرة . واتخذها ملوك
العلويين الأولون كذلك عاصمة لهم ، الى ان انتقلت العاصمة الى
الرباط في عهد مولاي يوسف ، والد محمد الخامس ، وجد الحسن
الثاني . وقد تركت كل واحدة من هذه الدول المغربية آثارا من آثارها
في هذه المدينة العريقة .

وجدير بالذكر أن معظم اعلام الفلسفة والطب من الاندلسيين ،
من عهد المرابطين الى اواخر عهد المرينيين خاصة ، قد انتقلوا من
الاندلس ايقموا في مراكش او فاس ، في رعاية ملوك هذه الدول
الثلاث وامرائها . وفي ذلك يقول عبد الله كئون في كتابه (النبوغ
المغربي) : « فابو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايغ ، والفيلسوف
والطبيب والموسيقي ، هو ممن اظلتهم دولة المرابطين ، وخدم رجالها
بعلمه وفنه ؛ وابو الوليد ابن رشد ، وابو بكر ابن طفيل ، وابناء
زهر ، هم ممن نبغوا في اعقاب عصر المرابطين ، وانتشرت معارفهم
في العصر الموحد الذي يليه . واعلام الفقه والتصوف ، مثل ابن رشد
الكبير ، وابي بكر ابن العربي ، وابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ،
هم من رجال عصر المرابطين او عصر الموحدين » (١) .

وفي مراكش ضريح بسيط متواضع ليوسف بن تاشفين ، على
مقربة من جامع الكتبية ، اقيم في عهد الملك محمد الخامس فقط ، في
١٩٥٠ م . يقوم ضريح خصمه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمد بن عباد
غير بعيد عنه ، في أغمات ، في فخامة لا يعرفها ضريح ابن تاشفين .

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كئون ، الجزء الاول ، ص ٦٧/٦٦ .

وكانت اغيات عاصم المرابطين قبل ان يبني يوسف بن تاشفين
مدينة مراکش .

وجدير بنا ان نشير هنا الى ان ابن تاشفين كان قد دخل الى
الاندلس بجيوشه مرتين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس
الهجري ، الأولى لصد غارات الجيوش الاسبانية عن ممالك الاندلس ،
ولا سيما عن مملكة اشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عباد ،
والثانية بعدها بقليل ، لكي يضم الاندلس الى المغرب ، ويوحد
سلطانه على العدوتين . وفي هذه المرة الثانية سلب المعتمد مراكش
بالقبود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى اغيات ، حيث مات
المعتمد في ذلة الاسر ، وخلف لزوجته وبناته مذلة التترد والفاقة .
ثم ماتت زوجته ودفنت الى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابن عباد من مدخل ، تقوم الى يساره غرفة
ليها سجل للزائرين . ويفضي المدخل الى باحة مكشوفة ، ثم الى
غرفة فيها قبر ابن عباد وقبر زوجته الى جانبه . وعلى الجدار اليمن
والجدار اليسر ابيات نظمها الشاعر الوزير لسان الدين ابن الخطيب
حين زار قبر المعتمد . وهذه ابيات منها :

قبر الغريب ، سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
كفك ، فأرفق بما استودعت من كرم روك كل قلوب البرق رقاد
ولا تزل صلوات الله دائمة على ذفيك ، لا تحصى بأعداد

وكان ابن الخطيب قد رثى ابن عباد بأبيات أخرى حينها وقد
على قبره ، فقال :

قد زرت قبرك عن طوع باغيات رايت ذلك من اولى المهمات
لم لا ازورك يا أندى الملوك يدا ويا سراج الليالي المدلهمات
وانت من لو تخطى الدهر مصرعه الى زمانى ، لجادت فيه ابياتي

لكنما شاعت الأتذار أن تقارب بين ضريح السلطان الغالب ،
والملك الشاعر المخلوب ، الذي كان له من دنياه السلطان والشعر

مما ، مَخْلَسٌ بالشعر ، وظلُّ اغرودةً في مَم الزمان ، وظلُّ قبره مَحَجَّةٌ
للزَّوار مَمَّنْ يَعشَقون الفنَّ والشعر . وَبِجَمْعِ الضَّرِيحِينَ الْمُتَقَارِبِينَ ،
اجتمعَ المَغْرِبُ والأَنْدَلُسُ اجتماعاً أبديّاً ، كان الضَّرِيحانَ رمزاً خالداً
لَهُ وعنواناً .

المدرسة النيسابورية في مراكش



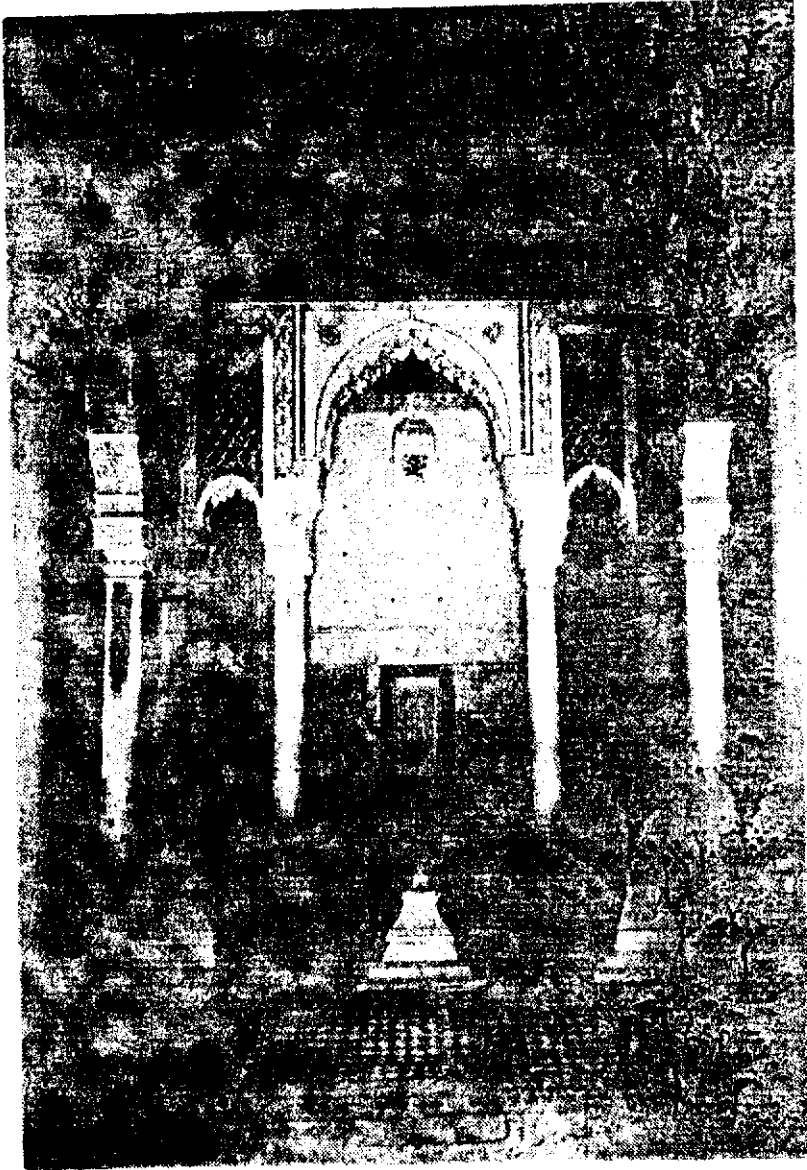
والى جانب ذلك يجتمع المغرب والاندلس في آثار اخرى باتية
في مراكش ، لَعَلَّ أهمَّها جامعُ الكتَّيَّةِ ومُذَنَّتُهُ — أو صُومعته — اخبت
أذنة اشبيلية الشهيرة باسم (الخير الدا) ، ومُذَنَّة حُتَّان في الرباط .

ستار مئذنة الكتبية ومئذنتا الخير الدا وحسان ، بشأن الصعود اليها ليس على سلال ، بل في طريق عريضة مملوكة ، تنتهي مثل دورة منها بشرفات من جميع الجوانب ، تطل على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعد أعلى المئذنة ، واطل من شرفاتها ، انبسطت تحت عيني المدينة كلها كما تنبسط راحة اليد . ويقال إن المنصور قد اراد من بنائها بهذا الشكل ان يكون في وسعه الصعود الى اعلى المئذنة على سهولة جواده . هذه الميزة هي اهم ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخير الدا يبلغ علوها اكثر من خمسة ومبعمين مترا ، وعلو الكتبية اثنان وستون مترا ، ولا ادري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بقية مئذنة فقط ؛ اما من حيث الشكل الخارجى فان الخير الدا ، في اشبيلية ، تحفة رائعة من آيات الفن المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد اقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أطيل الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جداً ، وكلها جدير بوقوفات طوال مشيعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابر السعديين ، وفي وسطها قبر احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائق الأوكدال الفسيحة الواسعة الارضاء ، وقد انشاها الملك محمد بن عبد الله العلوي . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبركتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط احدهما مكان لجلوس جوقة موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة ببركة القيروان في تونس . وهناك ايضا قصر البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، من ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدم اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كله ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير علي بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم أبيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسي الطراز ، سواءً في هندسة البناء ، أم في المقرَّبَات
الخشبيَّة السوداء ؛ وهذه أوَّل مدرسة اندلسية الطراز شاهدها في
حياتي ، ولم أرَ من قبلُ مثلها في الاندلس . أما المغرب فتكثر فيه



مقبرة السعديين في مراكش

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشاه الملك ابو عنان المريني ، وتدعى
مدارسه كلها باسمه : (المدرسة البوعنانية) . وقد شاهدتُ من
المدارس البوعنانية ثلاثا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهي وسواها
من المدارس القديمة متشابهة في طرازها ، وغرَف الطلاب فيها اشبه

بالرتزانات ، وَكُنْهَا تُطَلُّ عَلَى بهو اوسط مفتوح ، و تة سوم في الطابق الثاني من المدرسة .

واما الزخارف الاندلسيَّة المدهشة فيجدها الزائر في قصر (الجلاوي باشا) ، المهجور الآن ، بكلِّ ما كان فيه من اثاث ورياش فاخرة ، كلُّ اتمشتها من الدُمُتس الحرَّ . وكذلك في (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقة ، بطرازها الاندلسي الجميل المتنع . في هذين القصرين يعود المرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جوِّ اندلسي صرف ، ولكنه جوُّ اندلسي حديث متجدد .

— ٤ —

مدينة فاس

يا فاسُ، يا جَنَّةَ الآمالِ باسمُةٌ وجَنَّةُ المغربِ الأتصى إسماعيلُها
ما زال جامعُك المَعمورُ مُفخرةً للضاد ، مَأْوَى طَوْقِ المَنَّةِ البَاقِيا
(محمد الجمهوري)

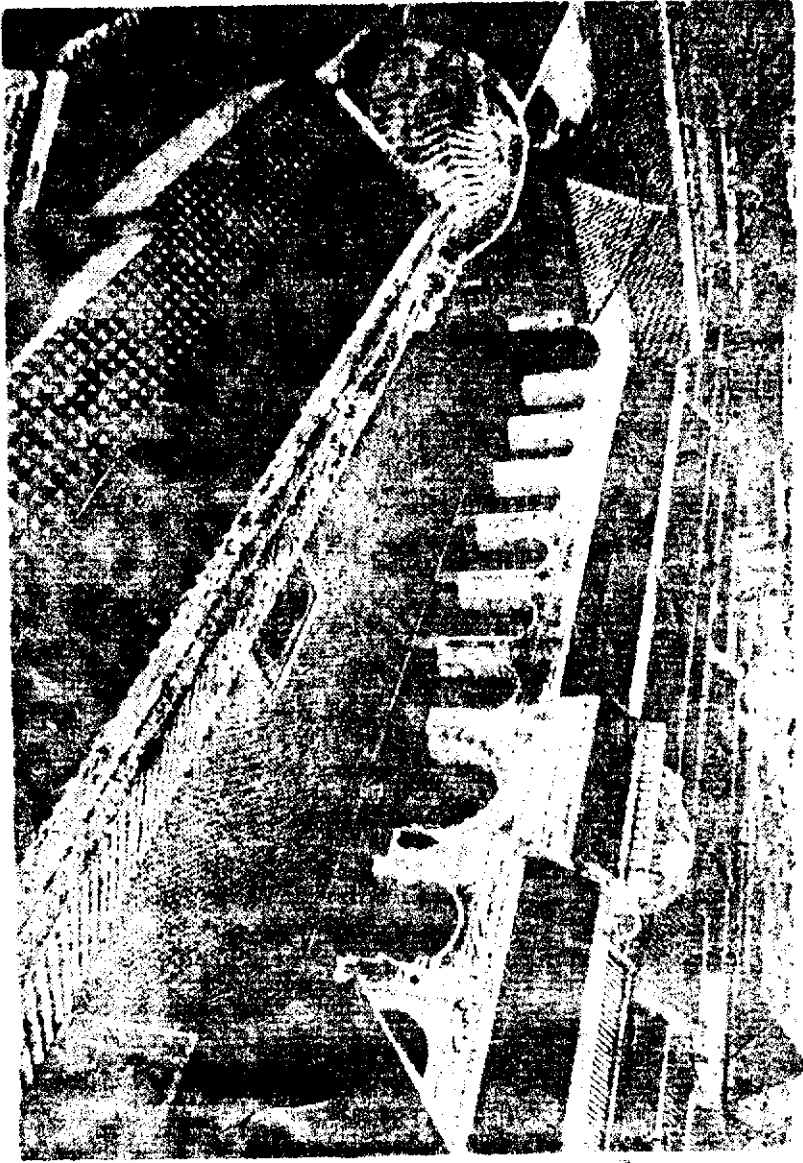
وتنطلق من مراكش مصعداً في الأطلس الأوسط نحو الشمال ، حتى تصل الى مدينتين عريقتين ، هما مكناس وفاس . ولكليهما تاريخ طويل مجيد من تاريخ المغرب السياسي والفكري ، وميلاد مدينة بالاندلس وعرب الاندلس في القديم ، وبفنون الاندلس في العصر العباسي .

ولست اقف طويلا عند مدينة مكناس ، بل اكتفي منها بذكر القليل من اثارها الباقية ، واهمها : قصر اسماعيل بن علي بن الشريف ، راس الأسرة العلوية ، ومسجده الاندلسي الطراز ، ذو الألوان الجيلة الشبيهة بالسوان قصر إشبيلية ؛ وكذلك المدرسة البوعنانية ؛ وهي احدى المدارس التي انشأها ابو عنان ابن ابي الحسن المريني . ويضاف اليها قصر الجامعي ، الاندلسي الجميل .

وأما مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهو الذي وضع حجر الاساس للمدينة في غرة

ربيع الاول عام ١٩٢ هـ . ، الرابع من يناير ٨٠٨ م . ثم نُقل اليها
عاصمة ملكه من مدينة (وِليلى) او (فولوبوليس) التي كانت عاصمة
ابيه . وسرعان ما توافد عليه العرب من افريقية (تونس) ومن
الأندلس : فجاءه خمسة فارس من افريقية ، ومئات من الاسر

صحن جامع القرويين في فاس ، ويمنى سقفه الزليجية



الأندلسية . فجعل المدينة قسمين ، دعا أحدهما (عدوة الأندلس)
— وهي القسم الشرقي من المدينة — وأنزل فيه الأسر القادمة من
الأندلس ، ودعا القسم الثاني (عدوة القرويين) — وهي القسم
الغربي — وقد أخذ منه الملك ادريس مقرًا له .

وظلّت فاس عاصمة الدولة الإدريسية ، التي قامت في المغرب
على يد الإمام إدريس الأول ، بعد هربه من المشرق خوفاً من بطش
الرشيّد به . غير أنّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموماً في
عاصمته (وليلي) على يد الشماخ ، بتدبير من هرون الرشيد ووزيره
جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر
الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراکش
التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المرينيون في القرن السابع
الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نقلوا العاصمة من مراکش الى
فاس من جديد ، وأضافوا الى المدينة قسماً دعوه (فاس الجديدة)
واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار أيضاً .
وظلّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوطاسيين ودولتهم
القصيرة العمر .

وكثّر نزوح الأندلسيين الى فاس ، وقد حملوا معهم عناصر
حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك أثره الكبير جداً في النظم الفارسي
والحضاري الذي عرفته فاس . وممن وُمدوا عليها ومارسوا علومهم
وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والدبلوماسي
ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب . والشاعر
جزيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زهر ، وغيرهم ،
وكلّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحّدين او المرينيين .
والمؤلم حقاً أنّ كلّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُميَ بتهمة الإلحاد
والزندقة ، وبعضهم مات حرقاً ، أو مات مسموماً . ولا يزال قبر
لسان الدين بن الخطيب بارزاً أثره خارج أسوار مدينة فاس .

وما تُذكر مدينة فاس الا ذُكر معها جامع القرويين ، وكان دائماً
في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تُخرّج كبار علماء البلاد المغربية
على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تحوّل اليوم الى جامعة
عصرية . وهذا الجامع انشأته في القرن الثالث الهجري ، التاسع
الميلادي ، السيدة فاطمة أم البنين الفهريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبحت جامعة ، هي اقدم جامعات العالم على الإطلاق ، واصبحت مصدر إشعاع فكري إسلامي غمر بلدان المغرب والأندلس ، وتوافد عليه العلماء وطلّاب العلم من كل صوب . وبجامع القرويين صارت فاس عاصمة المغرب العلميّة الى اليوم . وهو اول



مبىضة جامع القرويين في فاس

جامع نقيه سيّدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّه ؛ وكُلّ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ ذلك الحين كانت تتبارى في دعم القرويين ، وإغداق المال عليه ، وإجراء التوسّعات التي يتطلبها ، وتوفير العلماء له ، (والمدارس) العديدة لايواء طلّابه وتدريسهم .

أما اثر الاندلس في القرويين فنطالعُه في كسل مكان من هذا
للجامع العريق : ففي المحراب نرى الطراز الاندلسي بزخرفته زهرقة
بديعة ؛ وفي صحن الجامع ندهشنا قطع الزليج — او السيراميك الصغير
الملون — البديعة الألوان تغطي الأرضية كلها ، وتزخرها المشكاة
الجميلة ، والجدران جميعها . ومن فوق زليج الجدران والأرضية
تندلى المقرصات والنقوش الجصية والخشبية المدهشة ، تفتت فيها
أيدي الصنّاع الفاسيين الذين أخذوها في الأصل عن الاندلسيين ،
ومضت تبدع فيها ما شاء لها الابداع . وعلى طرفي الصحن تقوم
ظلتان — سقيفتان — جميلتان ، تزينهما السقوف الخشبية البديعة في
نصفها الأعلى ، والأعمدة الرفيعة الدقيقة من أسفلها ، والزليج
الأخضر البهيج في سطوحها . وعلى الجدران قطع صغيرة من
الفسيفساء الزليجية البهية الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عدّة مدارس قديمة ، اندلسية الطراز ،
نذكر منها : البوعنانية ، ومدرسة النجارين ، والمطارين ، والسقارين ؛
وهذه كلها من المعهد المريني في القرنين الثالث عشر والرابع
عشر . وهناك أيضا مدرسة الشراطين ، وهي من عهد الأسرة
المعلوية . وكل هذه المدارس وسواها من المدارس القديمة في مختلف
مدن المغرب هي من طراز المدارس التي نشأت في الأندلس من قبل ،
والتي جعلت من الأندلس منارة علم وحضارة قبل أن تقوم النهضة
الحديثة في أوروبا .

وتتجلى الصناعة الأندلسية في كل مكان من مدينة فاس : في
المساجد ، والزوايا ، وفي المدارس ، والأضرحة . ومن أمس الزوايا في
فاس زاوية مولاي إدريس ، مؤسس المدينة ، ويتبدى جمالها في
زليج سطوحها وأفاريزها ، وزخارف جدرانها وأرضيتها .

غير أن أحدث الأعمال الزخرفية الجميلة المتطورة يبهّر الزائر في
(فندق قصر الجامعي) ، وهو فندق كبير حديث ، نفسه كان قصرًا
قديمًا من القرن التاسع عشر لأحد كبار اغنياء المغرب يدعى (الجامعي)

— وله قصور أخرى في مكناس وبعض المدن المغربية الأخرى — ثم
اضيفت إليه أجنحة حديثة ، واستُغِلَّت حدائقه الفسيحة ، وَزِيَّنَ
بالتقوش والزخارف الأندلسية المَخدَّعة ، فجاء قطعة مدهشة من جنة



قاعة العرش في القصر الملكي في تطوان

الأندلس ، يُعزَّزُ منيلهما في قصور غرناطة وإشبيلية ؛ وفي فسحاته
الواسعة ، حَوْلَ بركة الماء الكبيرة في حدائقه ، تُقام حفلات الغناء
والرقص والموسيقى الأندلسية ، فيعيش الساهرون في جوٍّ أندلسيٍّ
خالص ، وفي مُتعةٍ للعين والنفيس لذيدةٍ حاملة .

لقد امتزج تاريخُ فاس بتاريخ الأندلس في أشياء كثيرة : امتزج بالأسر الأندلسية العديدة التي نَزَّحت الى المدينة منذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسة العمرانية والنقش والزخرفة ؛ وامتزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذة وطلاباً وزواراً ؛ وامتزج في قصور الماوك والحُكَّام بمن وفد عليهم من أعلام الأدب والشعر والفقه والعلم من الأندلسيين ، ولا سيما في عهد المرينيين وسُـلطانهم الأشهر أبي عنان . وقد فُكِّرنا في ما تقدَّم أسماء بعض هؤلاء الأعلام .

وهناك مظاهر أخرى كثيرة من امتزاج الأندلس بمدينة فاس ، نجدُ بعضها في الطُرُقَات الضيقة التي تسير في وسط المتاجر المسطَّحة على الجانبين ، لتُبرزُ أعمال النَسَّاجين والصاغة والسُّنَّاع الفاسيين البارة الجميلة . ونجدُ بعضها كذلك في طراز الأسوار ذات النُـوُـمات المديَّنة .

والواقع ان مدينة فاس من أكثر المدن المغربية تأثراً بالأندلس وبفنون الأندلس ، ومن أكثرها احتضاناً لفنون النقش والزخرفة والبناء الأندلسية .

— ٥ —

تَطَوَّان

تقوم مدينة تطوان — أو المدينة البيضاء ، كما تُدعى أيضاً — على سفح تل (دُرُسة) الى الجنوب من سَبَّـة . ومن حَوْلها يَمُـسِّي وادي الحلو — ويدعى أيضاً وادي مَرْتَل — بساتينها الجميلة المهيبة بها . وقد بَنَى هذه المدينة المهاجرون الذين جاؤا من غرناطة في أيامها الأخيرة ، وعلى رأسهم أبو الحسن المنظري . ثم لحقَ بهم غُرُهم ممن اضْطُرُّوا الى النزوح عن الأندلس . وقد حافظت هذه الأسر النازحة على أسلوب حياتها الأندلسية ، بحيث يُخَيَّل اليك ، وانت تدخل الى تطوان ، انك تُدْخِل الى مدينة اندلسية . والواقع انني هناك رَجَعُ بـي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنوب الأندلسي ، بشكل خاص ، وشُعِرْتُ بأنني قد عُدْتُ اليها من جديد — وكان عهدي بزيارة رُنْدَة قريباً — .

وتطوان هي العاصمة العلميّة في الشمال المغربي ، واللغةُ
الاجنبية التي يتكلم بها التطوانيون هي الاسبانية ، وبيوتها تُعكس
جمال الطراز العمراني والهنديّ الأندلسي .

جوقة موسيقى أندلسية في قصر البريشة في تطوان



وقبل أن أمضي في الحديث على المدينة وطابعها الأندلسي ، أودُّ
أن أذكر أنني حرمتُ هناك على زيارة مؤرخ تطوان وشيخ علمائها ،
الاستاذ الحاج محمد داود ، صاحب (تاريخ تطوان) ، الذي يقع في
أربعة عشر مجلدا ضخما ، ستة منها مطبوعة ؛ والثمانية الأخرى

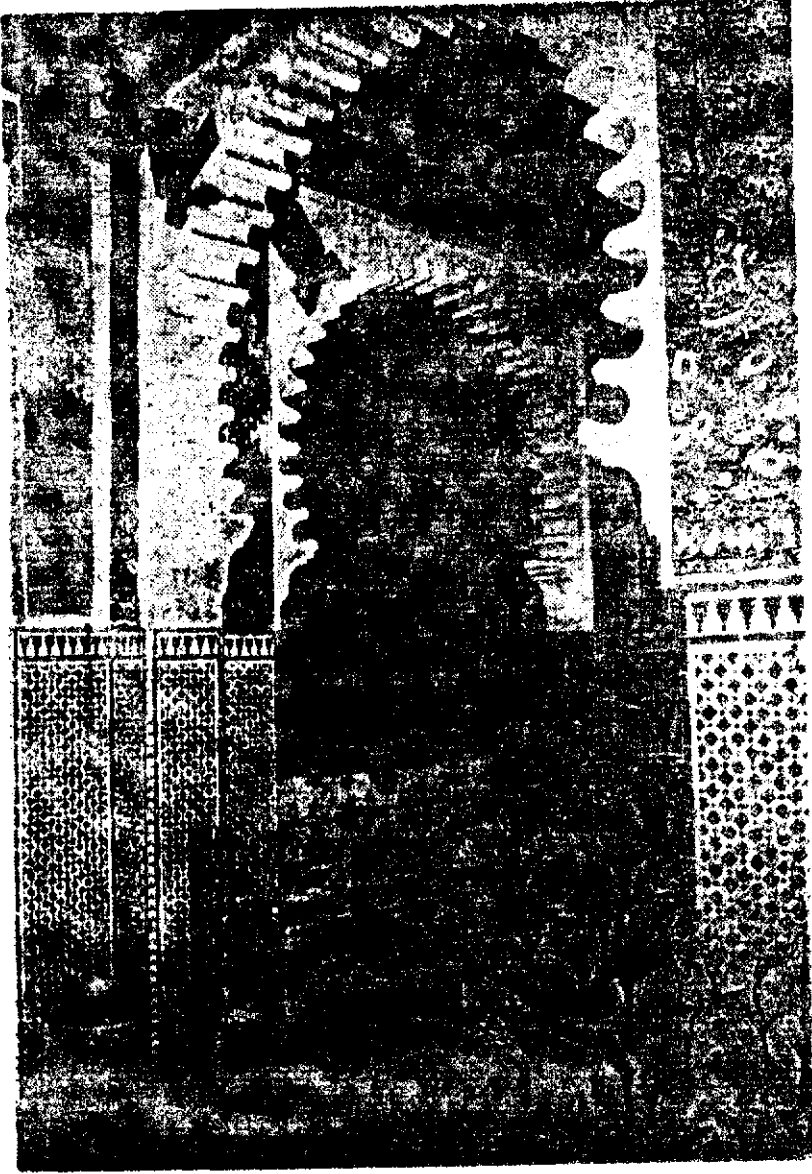
تنتظر الطبع ، يُضاف إليها أربعة مجلدات ضخمة أخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، مما يصل بتاريخ تطوان إلى ثمانية عشر مجلداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمد داود في تلك الزيارة .

ان روح الأندلس ما تزال تعيش مع الحاج محمد داود ، مُتَحَدِّثَةً إليه من أجداده الذين نَزَحُوا عن غرناطة . ومَنْزِلُهُ شِلْمَةٌ فَلَائِيَّةٌ مِنَ الأندلس : بتنظيمه الهندسي ، وبنقوشه وزخارفه ، ومُفَرَّشه وأثاثه ، وجدرانه وسقفونه ؛ ولأول مرة ، وفي منزل الحاج محمد داود ، رايت طراز المخادع الأندلسية ؛ بالسُرير العالي ، والمستأثر المصنوعة من الدِمْشَقِ الأصلي الجميل ، ورايت كيف يكون (البيت الأندلسي) بفراشه على سَطِيحَةٍ مرتفعة عن الأرض ، وبمُسانِدِهِ المستديرة الطويلة المغطاة بقماش حريري زاهي اللون . كلُّ ما في منزل الحاج محمد داود يَنْقُلُكَ إلى الأندلس ، فتعيش مع التاريخ الزاهي العزير الذي مضى .

ومثل منزل الحاج محمد داود كذلك منازل عديدة أخرى . أهلها كُلُّهم من أبناء المهاجرين الأندلسيين ، ولم يستطيعوا التخلّي عن أسلوب الحياة الأندلسيّة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد السلام الصَفَّار ، مدير مدرسة الفضيلة للبنات ، كما زرتُ مدرستَه اينسا ، فرايتُ في كليهما ما يُبهج النفس والنظر من روعة الطراز الأندلسي في كلِّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائقُ العامة في وسط المدينة ، من مثل ساحة الحسن الثاني ، وحديقة (روضة العُشّاق) ، هي أيضاً قُطْعٌ من جنان الأندلس وساحاته العربيّة القديمة . وحسبُ تَدْخُلِ إلى حديقة (روضة العُشّاق) تجد في وسطها ظِلَّةً — سقيفة — جميلة لجلوس المتزّهِين ، سَطْحُهَا من الزَّيْلِجِ الجميل المألوف جداً في الأندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بَرْكَةٌ صغيرة مستطيلة ، على جانبيها نوافير رفيعة تنفث أقواساً من الماء إلى وسط البركة ، فيعود بسك الفيل إلى (بركة الساقية) في قصر جَنَّةِ العريف ، في غرناطة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسطها ظلّة أنيقة
 كذلك ، تقوم على أعمدة دقيقة ، تُذكر الزائر بدقّتها ، ولطفها ، وجمال
 هندستها ، وزليجها ، وزخارف أرضيتها ، بكثير ممّا يُعرف في الأندلس .
 الأعمدة الرهيبة الجميلة ، بشكل خاص ، تُذكرني بأعمدة جامع قرطبة ،
 وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .



مُخدع أندلسيّ في المغرب

ثمّ تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك
 يتجلى العشق المعماريّ المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأندلسية : بأشكال لا تُشَبَّعُ المِينُ من تأملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرها الدائم . وهذا الجمال هو بعضُ التفنُّنِ المبرع المدهش الذي يُتنافس فيه الصُّنَّاعُ التُّطَوَّانيون والصُّنَّاعُ الفاسيون بشكل خاص ، ويحاول كلُّ منهم أن يتفوق فيه على زميله .

هذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م . ، القرن العاشر الهجري ؛ بناه القائد أحمد الريفي ، خليفة الملك سليمان العلوي في الشمال المغربي ، ثم أُدْخِلَتْ عليه مع تعاقب الأجيال ترميمات وإصلاحات عديدة ، نَجِدُ تواريخها مَدُونَةً على جانب باب القاعة الكبرى ، في المطابق العلوي ، وأما الهندسة الأصلية فلم يطرأ عليها أي تغيير . وقد عُلِمَتْ من وكيل القصر الذي رافقني في جولتي هناك ، أن الصناعة الجبصية في القصر ، يُنْقُوشُها المَقْرِبُصَةُ الجميلة الأنيقة ، هي صناعة فاسية ، وأما الزليج الصغير البديع الألوان فمزيج من صناعة تطوان وصناعة فاس ، وأما المقربصات الخشبية وكلُّ النقوش الخشبية فصناعة تطوانية . والفرق بين صناعة تطوان وصناعة فاس في أعمال الزليج الصغيرة — كما قال لي وكيل القصر — هو أنَّ الصُّنَّاعَ الفاسيين يُسَدِّدُونَ الشكلَ الكاملَ قِطْعَةً واحدةً ويشوونه في النار ، وأما التطوانيون فيَقْطَعُونَهُ قِطْعاً صغيرة ثم يشوونها ، وبعد ذلك يُلصِقُونَهَا على الجدار قطعة قطعة . وكان الصانع التطواني الأول الذي صنَّع نقوش القصر يدعى (المعلم أحمد البوري) .

وَنُنْتَقِلُ من القصر الملكي في طريق ضيقة نازلة ، مَرَّجَةً — هي طريق أندلسية صُرِفَ — لِتُصِلَ إلى قصر آخر عظيم الفخامة في طرازه الأندلسي . ذلك هو (قصر البريشة) ؛ وهو جناحان كبيران ، عاليان السقف ، أحدهما مَخَصَّصٌ لبِيعِ المصنوعات الجلدية والمنسوجات المغربية المشهورة في جمالها ، والثاني سياحي : تَدْخُلُ من الباب مُتَفَاجِئاً بمنزلةٍ قد لا تَنَجَّعُ عليه المِينُ في أي مكان آخر : بهوٌّ مَرِيضٍ فسيح الجوانب ، وفي وسطه بركة ماء صغيرة جميلة ، يُدْفَرُ الماء من نافورة فيها ؛ ومن حول البركة جوقة رجال ونساء بملابس أندلسية

متركشة ، وفي أيديهم آلات طرب أندلسية . وما إن يُحسّوا بِوَقْعِ
خطاك عند الباب حتى يأخذوا في العزف والغناء ، وترقص في وسطهم
الرائصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفن أندلسي جميل أخاذ . وعلى
جوانب البقوس العريض مقاعد منخفضة لجلوس الزوار والسّياح
للإستمتاع بالرقص والغناء وبالموسيقى الأندلسية .

هذا القصر أقيم سنة ١٨٩٧ الحاج عبد الكريم البريشة ،
وكسان سفيرا ووزيرا وثريا كبيرا ، تولى مناصب رفيعة في تطوان
وفاس والبيضاء في عهد الملك الحسن الأول والملك عبد العزيز ؛ ويقال
إنه بنى قصرًا آخر مثله كذلك ، وجعل القصرين لبنتيه . وهذا القصر
ممتع للعين والنفوس ، بما فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسية .

والجدير بالذكر أنّ في تطوان وغيرها من مدن المغرب مدارس
خاصة ، يدعونها (دور الصناعة) تُدرّس فيها فنون النقش والمقربصات
والترصيع الأندلسية ، لتظلّ حيّة متطورة باستمرار . وقد دخلت دار
الصناعة في تطوان ، وتجوّلت في أرجائها ، فادهشتني الصناعات
الأندلسية الجميلة التي يصنعها المتدربون هناك ، حتى اذا ما وصلتُ
الى القاعة الأندلسيّة في الطابق العلوي ، وقفتُ ذاهلا أمام الجمال
الباهر المتجلى في الجدران والسقف ، وفي قطع الأثاث الخشبية
البديعة الصنع .

إنّ كلّ شيء في تطوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحى اليك بأنك
في قطعة من الأندلس العربيّة في ازهى عصورها .

* * *

ونأتي الآن الى الختام من هذه الجولة السريعة ، لأقول إنّ ما
قدّمته في هذه الدراسة الموجزة ليس سوى خلاصة للانطباعات التي
عُدّت بها من جُولتي في مدن المغرب . ولكنّ الواقع الذي شاهدته ،
وعُشّته ثلاثة أسابيع هناك ، يظلّ أكبر من الكلمات ، وهو جدير
بمزيد من التفاصيل ، وجدير كذلك بمزيد من الصُّور ، لتقريب الوصف
من الحقيقة .

لقد زُرْتُ الأندلسَ مُرتين قَبْلَ زيارة المغرب : كانت الأولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراسة الفاحصة المتأنية ، لا لِجَسْرُدِ السّياحة والنزهة . وقد امتلأت نفسي بها شاهدتُ هناك من روائع آثار الحضارة العربية الإسلامية الباقية الى اليوم .

وحين زُرْتُ المغرب عام ١٩٧٤ — بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة — احسستُ بأن هذه الزيارة كانت ضروريةً لغي تكُّمُلِ بها دراستي للأندلس : ذلك لأنَّ بين البلدين ، الى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةٌ مشتركة باقية ، ولأنَّ المغرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخه ، وحضارته ، وفنونه .